رأيان آخران في رواية

المهزومون

— ١ —

« العبث والتمزق في « المهزومون »

بقلم حيدر حيدر

*

عندما نالت رواية المهزومون ، جائزة الاداب لعام ١٩٦١ ، سجل انتصار جديد لجيل الناشئة ، في عالم الادب ، بعد ان كانت الجوائز ، وكان التصفيق والاعجاب تعتقل لصالح فئة من الادباء ، يسمون بعباقرة العصر.

الجائزة كقيمة مادية ، يمكن اعدامها ، ولكنها كاعتراف فذ ، لهذا الجيل المزق في تجاهله وانغماره ، في صراعه الصلب ، وآحتراق ذراته مع القيم المهلهلة العفنة ، هذا الاعتراف ، يعتبر نصرا لغزو هائل فريد ، سفح في سبيله « بشر » ورفاقه الغزير من التضحيات ، والمزيد من الاحتراق والتمزق .

تقف « المهزومون » كرواية جريئة لبنة صامدة في صرح ادب القصة في عصرنا ، تتحدى في لا مبالاة قيم اجيال متراكمة من الانحلال والتفسخ والقدرية ، اكلت شعبنا وسحقته ، خلال اعوام موغرة في القدم والتعفن.

يهمني من المهزومون فكرتان واضحتان تماما :

العبث ، والتمزق ..

وهاتان الفكرتان ، تمتاحان الرواية امتياحا جريئا هادئا ، ويمكن تسمية الرواية بـ « العابثون ... او المزقون ... » دون ان يكون هناك خروج — اي خروج — عن الهدف الحقيقي لها ، هذا الى جانب الجراة التي تزخم بها الرواية في سرد هذا العبث وهذا التمزق ، لجيل يعاني ضغوطا هائلة في حياته الموسومة بالقلق والرفض ، باحثا عن ذاته ووجوده ، في بلاد الصمت والكآبة .

وعندما قرات الرواية لاول مرة ، تساءلت :

الن تصادر هذه الرواية من الاسواق لو اتيح لحلقة من الشيوخ ورجال الدين ان تعطي حكمها فيها ، لانها تلسع في خفة وهروب رواسب حياتهم المزيفة ، كما صودر كتاب « الله والانسان » لمصطفى محمود مثلا ؟

ولكن السؤال جاء مخيبا حتى الان ، فشعرت بنسمة حرية تهب علينا من نافذة ما من بلادي ..

تتناول الرواية قطاعات معروفة في حياتنا ، ونماذج مختلفة تعريها في بساطة وصدق متناهيين . هذا الشيخ الذي يشمل « في باب توما» فقط . وتلتقطه الشرطة لتعيده ثملا الى الجامع ، ان بشرا لا يكاد يصدق ذلك ، فيحاول الهرب بكلمات لا مبرر لها :

وتبدا محاورته له بسخرية ملعونة ، بعد ان عرف قصته من « ملك »:

« لا بد وانك منتش من الزواج »

بشر يعرف ببساطة ان الشيخ لم يتزوج ، وقد تعمد كلمة « منتش » ليشعره في شفافية عابثة ، انه يشرب الخمرة المحرمة التي يجيب عنها في اصفرار من ضبط يعاقرها :

« النشوة تاتي من الخمرة ، والخمرة مكروهة لدرجة التحريم » .

الخمرة محرمة شرعا ، ومع هذا يشربها الشيخ ، فاي قرف يمكنه الا يشيل في اعماق بشر بهذه السخرية العابثة :

« اعترف لك انني شربت زجاجة بيرة امس »

ويقتحم عقل الشيخ تبرير يتقيا ذاته :

« البيرة ليست محرمة »

ماذا يملك جيل بشر امام هذه الكتل الكاذبة المهزومة التي يمثلها الشيخ في بلادنا ؟

يريد اغتصاب خديجة ، في زواج لا متكافيء منخور ، وهو فارغ لايملك سوى رغبة حيوانية تطفيء في ذروتها .

وقف الشيخ على باب الغرفة التي زربت فيها خديجة ، وناداها في خشوع المتبتل ، ونقر على الباب ، ولم يسمع نامة ، وطفق يضع راسه منصتا ، وبشر يشاهد هذا المنظر المقرف ، فيثور ويتمزق :

« وتراءى لي في تلك اللحظات اشبه ببرميل مليء وخما وقذى وعفنا. نظرت اليه هذا الممتنع عن شرب الخمر الا في باب توما ، وبلعت ريقا كنت اود لو بصقته .. »

واخيرا تجيب خديجة بسلبيتها الهائجة ، تريد قتل كل صبوة في اعماق الشيخ :

« اذهب .. اذهب .. اذهب .. »

وينسحب بشر يجرر هزيمة العالم وفشله ، لا يملك الا تمزقه :

« انسحبت من الغرفة ممتلئا بقرف هائل ، تناثر في غرفتي شتائم وبصاقا ضخما ورغبة في التحطيم .. »

انه يعود الى بيت اخيه ، لتتعالى شامخة مآذن دمشق في وجهه.

« ان سبعا واربعين مئذنة اخرى تتعالى في قيلولة ابدية » .

وينادي جاره ليربح له ثوابا في الجامع « تعال اربح لك صلاة ... الجامع قريب .. لن تكلفك سوى بضع دقائق »

ثم اسرح في دروب المدينة ، وكل شيء مسموح ، هذا هو المعنى الكامل للدعوة . ويجيب بشر على هذه الدعوة الحارة من جاره المهزوم كقطيع المصلين المندفعين منذ الاف السنين نحو الجوامع والكنائس ، يجيب بلسان جيل باسره : « كلا لن اصلي ... »

لن يصلي ، لا لانه جاحد ملحد ، ولكن لانه خاطيء ، والصلاة لا تطهر الخطيئة . الانسان موسوم بالاثم ، والجامع والكنيسة لايمحوانه . ان خللا ما ، مرتبط بجذور المجتمع ،وهذا الخلل ، هذا الخطأ يجب ان ينسف ويدمر ، ان المجتمع يجب ان يلغم ، لان قيما ومفاهيم جديدة تنذر ،تتحدى تنبت ، في صحاري بلدي الجديبة .

« ما احوج الانسان إلى ان يغرق في شيء ما ، يغرق بجميع ابعاده، فلا يستفيق الا على اجراس نبي جديد »

ويتبدى العبثموقفا وردا على عقم الحياة ، ولا جدواها « وامسكت بعصا ملقاة على الرصيف ، وطفقت اضرب بها بعض الحصى المبعثرة ..»

هذه الحصى تبقى رمزا ربما لم يتقصده الكاتب ، لكنها الدمامل المنثورة ، تنز صديدها ، وهي بحاجة لمبضع ، ونحن لا نملك سوى الكلمة المقذوفة ..

وهكذا تبدو الهزيمةوالفشل ، وليدين شرعيين للتمزق والعبث ،كموقف هروبي ماساوي ، هو قدر هذا الجيل « وديمة ، انا عائد ، بخاطرك »

« بعد قليل اخذ وقع خطواتي يضايقني ، فجلست على عتبة بيت صديء ارتاح واتمتع بخلو الشارع من الناس » هارب من ذاته ، يحس

لا جدواه تلاحقه ، ومع ذلك يتابع خط حياته الرقعة ، لانه محكوم عليه بالحيـاة .

وتتبدى عملية التعرية ، عملية واضحة في الرواية ، وهاني الراهـب، يكشف ذلك في تلقائية ، يلقي كلماته في لا مبالاة وتخطف ، يفضح المدينة المهروسة بمطارق الزيف والتفسخ والقدرية .

. . . . .

بعد ان عرف بشر من ملك ، ان زوجة الحلاق « ثريا » تضرب وتعذب كل يوم ، وتشتم شتما فظيعا ، لانها تتاخر في تسخين الرز يسأل « ملك»:

« الا تخون هذه المرأة المليئة زوجها ..؟؟ »

انتهرته « ملك » « هـه ... هـه .. انها من اشرف عائلات دمشق »

ربما لم تكن « ثريا » من اشرف عائلات دمشق ، لكن هاني ، تعمدهـا ليعري طبقة بالذات ، تدعي الشرف وتحتكره ، ثم تتمهر في محيطها المغلق المسدود بطريقتها الخاصة . وبشر عندما يضاجع ثريا السجينة في بيت زوجها ، المغلوبة على امرها ، يصلب ، هذا الشرف .. العائلي ... الزيف ، على صدر دمشق ، فيدين بذلك حضارة وقيما وشرائع ، سنتها هذه الطبقة لذاتها ، واجترتها منذ الازل .

يصطاد ثريا بطريقة عابثة : « ارجو ان تسامحي تطفلي .. نحـن شباب ، وناخذ الدنيا عبثا ، نفعل اشياء كثيرة ، لا مبرر لها ولا غاية.»

وتتلاحق الهزائم ، فشل اثر فشل ، وعبث ولا مبالاة ، وتمزق في « قلق البحث عن مصير » .

ان هاني ينتقل ببساطة من الوخم الديني السائد ، الى الاغتصاب الجنسي يمارس علنا تحت ستار جريمة يحميها ويشجعها القانـون تسمى خطأ « الزواج » ، ثم الى المولد في طرائقه العثمانية البهلوانية العتيقة ، مما يذكر بعهود ماقبل التاريخ ، ورقص قبائل الغاب الوحشي حول النار المقدسة ،... جميع هذا يجري في دمشق ، مدينة نـزار قباني وكوليت خوري ، ومطاع صفدي ، وزكريا تامر ، وهاني الراهب ، هؤلاء الانبياء في بلد ، يعبد الوثنية الاخلاقية الموروثة .

ينخر دمشق التناقض ، ويمزقها العبث ، او ليست دمشق في قيمها المتناقضة ، ككل مدن هذا الشرق ، تمزق اجيالها ، تمتص دماءهم ، وعيهم الحار ، تضغط حتى التشرد ، حتى الفقدان ، على ذرات ايمانهم ، ترميهم في جحيم فضائلها المرفوضة ، فتبدو لعيونهم رمز العقم والجوع والعدم؟

يمزق الضجر قلب بشر ، فيحترق :

« لست ادرى ماذا افعل بايامي ، انها مليئة بالبعثرة والتردد ، مفعمة بالاستحالة ، ما احوج الانسان الى ان يغرق في شيء ما ، يغرق بجميع ابعاده ، فلا يستفيق الا على اجراس نبي جديد .. »

الخط الواضح نفسه للمد الروائي ، البحث عن قيم جديدة ، على انقاض المثل المتنة السائدة ، لكنه يبقى بحثا يائسـا ، لا يملك بشر وصالح ودريد وسحاب ، وجميع ابطال الروايـة ، ازاءه ، الا الثورة والعبث والرفض بمحاولة الانعتاق مما هو كائن ، لكن ثورتهم فاشلة ، ورفضهم مهزوم ، وقضيتهم الحقيقية ، هي ان يغرقوا ، حتى القمة في حياتهم ، ويحيوها بصدق وجـرأة ، ولو كره الاخرون ، والـه ، والمجتمـع .

يلقي دريد مرة في لا مبالاة : « نحن تافهون » .

ويردد ، عندما تطاير من امامهم باص المهاجرين الضخم ، ينحدر نحو الحميدية ، « عندما كنا صغارا علمونا القناعة وحب الله ، ومحمد ، وما بني عليه الاسلام » .

ويجيب بشر في رد تناقضي جريء « ثم قرأنا بعد ذلك ـ الذباب ـ وكالي جولا ـ و ـ العادلون » .

ان هذا الجيل الذي يقرأ « سارتر وكامو » ريلكه وكافكا ـ وبلسون وهامنجواي ، لا يغترب ، ولا يبتعد عن قضاياه ، ولكنه يتعرف الـى الانسان في حقائقه العارية ، في ماساته الحادة ، واعتقد ان مصير الانسان ، في قلقه وياسه ، وهجره ، في حريته ومسؤوليته ، يتجمع اليوم ويتبلور تحت محرق الوجودية ، تكشفه وتعريه ، في بسـاطة وصدق ، فاي عار يكمن في قراءتنا وتعرفنا على الوجودية ؟

يصرخ صالح : « بدلا من العمل السياسي ، سنتحول الى العمـل العـاطفي » .

ويرد بشر : « المشكلة ، انه ليست لدينا مشكلة ... لو ان احدا منا يعاني ... لا ادري كيف اعبر » .

يبدو هنا مهزوما بشكل ما ، يخاف التصريح ، هذا المصدوم الخائب، من جيل الصمت ، يرف على شفتيه شبح كلمة ربما القته بزنزانة ، فيبتلع الكلمات ، وهنا فقط ، لا يبدو على حقيقته ، لانه يستتر ، هـذا المهزوم « العاطل عن النضال » .

. . . . .

المجتمع صفر ... عنـد « سحاب » رمت وليدتهـا على رصيف الحديقة ، ورفضت ان تقابل زوجها ، رغم انه صرف عليها في شهـر العسل ١٢٠٠٠ ليرة ، يبيع بشر وصالح ودريد وانا معهم ، رقبتنـا بنصف هذا المبلغ ، انها تتمرد على عبوديتها بطريقتها الخاصة ، عندما يرفض الاخرون حل قضيتها ، او الاستماع لتمزيقها الضمني ، وعذابها مع زوجها ، هذا المليونير الشحاذ لكلمة حب ، الخانع على اقدام امراة تهينه وتكرهه ، وتطلب طلاقها منه .

ويتابع هاني رحلة العبث ، في زورقه التـائه ، على شكل سخرية حينا ... وجد حينا اخر .. في الشوارع ، في الجلوس على رخام المنازل .. في مناداة امراة في الطريق .. او تقبيلها .. « اذا صادفت فتاة في الشارع فسأقبلها » اعلن دريد .

« لا بد من نومة في النظارة ، انا اشتهي ان انام في النظارة مـن سنين » قرر صالح .

الجميع يبحثون عن الاستغراق فيشيء ما، في حادث ، ولو كان تافها، شوق البحث عن احاسيس جديدة مفقودة في عالم المآذن .. والاغتصاب الجنسي والطبقية ، وشراء الزوجات .

عندما يسأل بشر عن المجتمع والدين ، يجيب « ان المجتمع والدين لا شيء ، الشيء الوحيد هو انا .. عني تنبع المثل العليا ، وبالنسبـة لي ، تقدر قيم الاشياء .. »

ان الانسان ينبوع القيم ، تتفجر منه كل تيارات الحياة الواعية ، وتتحدر منه جماع المصائر على الارض ، انه اله الارض .

بشر يرفض مجتمعه ، عقليا وروحيا ، ينفصل عنه بحركة ايجابية ، لا سلبية ، كما تبدو للوهلة الاولى هذه الحركـة ، مرادهـا التغيير والتبديل ، وسحاب ، هذه التي يصمونها بالاباحية ، تجيب في ماساة توحدها واغترابها الروحي الكالح :

« الدين موضة قديمة ، ان مجتمعنا في منتهى الحاجة للتغيير ، وان الدين لا يهيؤه » « ان الرأي العام عندنا يؤمن ايمانا قطعيا ، بقيم ومعايير ، وجدت لمجتمع سابق ، ولا يعرف لماذا يؤمن بهـا ، ولذلك ، عندما تهاجم ايمانه ، يشعر بانك تهاجمه شخصيا » .

وعندما ترفض سحاب في اوج تمردها ـ وبالقوة والثورة نفسيهمـا اللتين رمت بهما وليدتها على الرصيف ـ الله ، ينبري بشر ليدافـع عن الدعدعة التي سرت بين الجميع ، ليصم فاتز ، وقطيع العـاديـين القدريين ، من محرضي الايمان القطيعي المعلق .

« لا تفترض حلا ميتافيزيائيا ، هذه مشكلة ، لا تعرف حلها ، ليس من الضروري ان تعرف سر خلق الانسان » .

ويتمزق .. فيسم .. ويعرى .. ويتحدى .. ويعرض التراجيديا الحـادة هكذا !

« الضروري ان تعرفه هو : ان هناك زوجات تجلط رقابهن وامهات يشلهن الروماتيزم ، ثلاث سنوات ، وشبابا يبصقون دما في السـابعة عشرة ، ورجال دين لا يمكنهم الزواج ، انهم عقيمون ما عادوا يصلحون للحياة ، المهم ان تعرف ان في العالم احرارا يحاكمون ، وشعوبا تذل وفي الجزائر ابطالا لا زالوا يموتون باسم الحرية ، اليس من حقارة القرن العشرين ، ان يوجد فيه حتى الان بعض من يموتون من اجـل الحريـة ؟!!

من يحمل بين جنبيه هذا القلق المصيري ، يحمل صليبه ابدا ،

ويشيع جنازة فشله ، والحياة لديه عطاء ممزق ، وهو مهزوم مسبقا، كما حدس « هلال » : « انت عاطفي وستهزم » .

الاخرون يهتكونه ، لانـــه يحب سحاب ، وهو يهتـــك المجتمع ، « ساتزوجها » انها في عرفه لحن التحدي ، وهو يهوى التحدي حتى الفشل ، هذه قيمه ومعاييره ، ان بلادا يعبد شعبها البكارة ، لا تفهم سمفونية الحب الحقيقي .

يكتب لسحاب: « نحن جيل جديد ، وعلينا ان نبني اخلاقنا بنفسنا، كوني لي بكل وجودك وعواطفك زوجة وصديقة وملهمة ، وبعد ذلك ستسقط كل الاحتمالات وكل العقبات » .

يصفع خرافة المراة المستعبدة ، انها زوجة وصديقة وملهمة ، انهـا اكثر من طباخة وغسالة وكناسة ، وسرير متعة ... ومخزن اطفال وان البكارة لا تساوي نحاسة ، كما قرر صالح ...

وثريا تهوى الانطلاق نحو حياة حقيقية ، هربا من سجن البيت ، واغتصاب اصلعها الحلاق ، وبشر هو مثلها الاعلى ، هو حقيقتهـا تسعى وراءه الى غرفته بعد سفر هلال وملك ، انها تحبو الى قدرها الفحل ، في استسلام عاطفي ، تسميه ارتخاء وتخاذلا طبيعيا ، وعندما يسالها بشر « ثريا ، الا تؤمنين بالفضيلة » تخرج نفسا قصيرا ساخرا، فتهمهم « اذا كان ايماني قد تزعزع ، فكيف بالفضيلة » .

« في دمشق ، كل شيء قد مات ، عندما يتململ الجسد ، تنهزم الاخلاق ، انا لا اقبل ان اتقيد ، فاتعذب مقابل لا شيء ، ان الاخلاق لا تلبي حاجاتي ، فلست اعتقد ان جهنم اشد عذابا من الحياة » .

هذه المحكوم عليها بالعذاب ، لو اختارت بنفسها شريك حياتها ، وقررت مصيرها بنفسها ، هل كانت تزحف مستسلمة الى غرفة بشر ؟ فاي تمزق شنيع ، هذا الذي تعانيه ، هذه الانسانية ..؟؟ اتلام اذ تخون زوجها ، وهي تمارس الخيانة الحقيقية معه مرغمة منذ ثلاثة اشهـر ؟

ورغم ما يحاوله بشر مع سحاب ، فهو فاشل في ان يكون كمـــا يريد ، اهلها لا يسمحون ان يمشي معها انسان في شارع ، انه تبرير كاذب ، فالتي ترفض الله وتدوس على الزواج وتطرح وليدتها علـــى رصيف ، من ارصفة دمشق ، لا يهمها راي اهلها ، ولكنهـــا جريحة وجرحها ما زال ينزف ، حاقدة على كل شيء ، تكره العالم ، وبشر مهما سما ، لا يستطيع حمل عذابها ، رغـــم عظمة قلبـــه وعاطفته الجموحة ، يدعوها لحفلة تنكرية ، فتجيب في كذب ، يثير القهقهة « ساذهب مع بابا ... »

ويتمزق بشر في ردهـــا اللامقبول ، فيمزق البطاقة وكانه يفتت ذاته : « سحبت البطاقة من جيبتي ، فمزقتها، وسرت صامتا » وسالته سحاب « لماذا مزقتها » ..؟؟ ويجيب « لم يحن بعد الوقت الذي احضر فيه هذه الحفلات » وكانه يعلن اننا مولودون قبل الزمـــان الحقيقي لوجودنا ، وهذه هي ازمة المزقين ، في ارض يسمها الزيف والخوف واللاحقيقية .

ومع هذا تشرح سحاب في خوف ، وتاثر ، وصراحة ، ازمتهاالحادة « ان علاقتنا غير طبيعية ، يجب ان نبقى اصدقاء ، ان الناس مليئون باستعداد ضخم ليتقياوا مبادىء التحرر الفكري والاجتماعي ، بسرعة مذهلة ، وهم ينهشون ببراعة سمعتي ، فيتهمونني ويقضون علي ، ان اكثرهم تحررا ، ينتكس امام اول تجربة تحرر يمر بها، وانا لا استطيع ان اعيش كما يعيشون » .

ترفض جدران « الحرملك » ، الحياة فيها اعظم من اربعة جدران، والواجب الزوجي لا يفرض من خارج ، انه ينبع من صميمية الحب، انها لا تقبل ببشر مصليا صائما ، ذاكرا الله ، في كثير او قليل ، ومع ان بشر ليس من هذه النماذج ، اذ يجيبها « انني اشرب كل حرف تفوهت به ، واعبده ، سوف نبقى كما تريدين ، ولن اطالبك حتى بمشوار » .

ويهرع ببشر دريد ، « سوف ترى في المستقبل ، اية زوجةساتزوج، اية روعة ، واية الوهية ، فتاة يتمجد في فمها البعث ، وتمحى مـن وجودها العقد وعفونات التاريخ » .

تتبدى الازمة ، وكانها حلت ، او في طريقها للحل ، ولكن الانهيار والفشل يرعى صميم هذه العلاقة ، وهي ليست اكثر من غيمة صيف خادعة ، يتعلل بها هذا العاطفي المهووس، المرصودة مغارته ، بالنحس والفقدان ، لانه سابق لوجودة ، لم يولد زمانه الحقيقي بعد ...

• • • • •

اللاذقية لؤلؤة مرمية على شاطيء بحر في اهمال ، تغفو بين جنباتها ذكريات بشر الطفولية ، والم فشله في حب منيرة ، التي لم تتزوجه ، لانه رفض ان يكون ضابطا ، « لان نظامه فوق مستوى فوضى الروح» هكذا صارحها بشر بعد ان خرج من حانوت اخيه ابراهيم ، هذاالعتيق الذي يردد آيات القرآن منذ ثلاثين عاما ، والذي طرده في جفاء وبلادة « لا تعد ثانية الى الحانوت » ويردد بشر سمفونية العذاب « الحيـاة مع اخوتي لا تطاق » لقد سمعوا انه خطب سحاب ، هذه التي يسمونها بتعبير فيه الكثير من التجني ، (عاهرة ...) اصحيح ان سحاب عاهرة ؟ الانها مطلقة ؟ اليس افضل من بقائها تزني مع زوجها في قرف لا نهائي قاتل ؟.

ويغادر المدينة التي تنضح التقزز والغبـــاء الى القرية ، موطنه البريء ، حيث البيوت لم تتغير ، والناس معزولون في قواقع ابدية « الاهالي والوحل وهواء القرية النقي ، ما زالوا يسبحون اللـــه ويحلمون بجزر الواق الواق ، « وكامل رشيد » ما زال يعرج وينبا للناس بمصائرهم » هذه الملامح الراضية ، لا تعرف كيف تثور ، وعيها متحجر منذ آلاف السنين .

ويلتقي بامه ، مطروحة على السرير ، شبح الموت يتبدى في جسدها المنهد ، تحت ضغط المرض ، فتثار سخرية بشر اكثر من المه ، ان العبث الاكبر ينتصب في تحد وجبرية مهينة ، تذل الانسان ، وترميـــه كالحيوان في حفرة موحشة كئيبة .

« انه ليس معقولا ان تموت امي ، كما انه ليس معقولا ان تعيش ، ومع ذلك ، فلا المرض يقبل بالرحيل ، ولا انـــا اقبل بان تموت ، رفضان لا يمكن الاستفسار عن سببهما مطلقا ، انهما موجودان بصورة قدرية ، وتلك هي المشكلة ، بعد قليل سيتحول انسان حي ميتا ، وهذا الانسان امي ليس غير » .

هذا القلق وهذا التمزق ، يتركان في الارض الف تساؤل : « لماذا نحزن ..؟؟ لماذا نمرض .. ؟؟ واخيرا لماذا نحيا اذا كنا سنموت ..؟؟ اصحيح ان جميع هذا حكمة الهية ..؟؟ اي عبث هذا التلاعب بحياتنا على هذا النحو المقرف ..؟؟ ما معنى ان نثابر صراعنا في الوجود ، نحمل فناءنا في كل خطرة ..؟؟ مـــا هدف الاستمرار الى ما وراء العدم ..؟؟ اية ماساة راعفة تلف هذا العالم المحكوم عليه بالرعب..؟؟

« عند الفجر ماتت امي بكل حتمية ، فما اضيع الشقـــاء الذي تكبدته طيلة اكثر من نصف قرن .»

هكذا تبدأ الهزيمة الكبرى للانسانية في بشر، يغلفها الكفن في لحظة الموت عندما يعبث بحتميته اللامقبولة .

• • • • •

ويعود بشر من اللاذقية بعد ان اصبحت الحياة لا تطاق هنـــاك ، وبعد ان ماتت امه ببساطة ، بلا مبرر ، فيلتقي بسحاب ، تحدثه عن بور سعيد والقاهرة والنيل والقناطر الخيرية ، وتشيد له بكرم قبطان الباخرة ورجولته ، ويسمع اللغط بين طلاب الجـــامعة عن انحلالية سحاب وعهرها مع القبطان ، وعازف الكمان ، في الزورق النيلي ، فلا يزداد الا تصميما ، ويحاول اقناع نفسه بطريقة منطقية .

« اذا كنت اقبل بسحاب ، بعد ان عاشت مع رجل من الكويت سنتين ، فكيف ارفضها اذا عاش معها قبطان يوما او اثنين ، العملية نفسها ، غير ان الاولى تمت بورقة ، اما الثانية فبالارادة » .

ويرتدي الجدل مع فائز طابعا ثوريا صريحـا ، يشعره بضـــالته وعاديته، رغم انه طالب جامعة ، انهما على طرفي نقيض، ان عالما كثيفا وصفيقا من رسوبات الاجيال العقيمة ما زال يفصل بينهما ، ويغادر

الجامعة وهزائمه تدوم في رأسه كالخذروف ، وتدخل ثريا فيخبرها بموت امه بطريقة عابثة ، ويجتاحه احساس سديمي معدوم التوضح، كان ظهرها « قوس شهوة » وهي تهيء الشاي ، واحس لاول مرة بالقبلة توهن قواه ، وتقلص احساسه بالعالم ، واستغرقهما السرير.

يضاجع ثريا تماما ، كما فعل « مرسو » غريب كامو مع « ماري » ضاربة الآلة الكاتبة ، الموقف العبثي ذاته ان يكون الاتصال الجنسي هو الحد العبثي الوسط بين الحياة والموت، كما يعبر ت. س. اليوت: « الحياة فالاتصال الجنسي فالموت » .

هذه هي نغمة الحياة الناشزة ، التصادم المستمر بالصخور البشرية، والعبث اللانهائي ، ويتيح له موقفه هذا المقارنة بموقف سحاب ، « امس كان فائز يتسهم سحاب بخرق ما يدعوه بالحرمات ، وامس خرقتها بنفسي » .

ويسخر من قيام فائز وقوانينه ، هذه التي تتيح للرجل كل شيء ، وتحرمه على المرأة ، انه لا يحب سحاب لتخلص له ، او لا تخلص ، لتكون ورعة او داعرة ، هذا ياتي كمحصلة بعد ذلك ، يحبها لانها متمردة تعيش صدق الحياة اللامزيف ، وهي احدى نماذج هدم القيم المنخورة ، انها وهو ، وكل جيل التمزق والعبث يبشرون بنبي جديد، وولادة حقيقية . انهم باعصابهم بكرامتهم، يشقون الدرب ، ولكل ثورة وانقلاب ضحايا ، فلماذا لا يدفع هو الثمن بزواجه من مطلقة اباحية ، يلعنها المجتمع والدين والله ... هذه الفكرة لا يقبلها الكثيرون ، ويسمونها فجورا وفوضى وانحرافا ...

. . . . .

راديو احد البقالين يهدر : في الخضراء ثورة ... والعالم ينصت للحدث ، بشر ودريد وصالح يرقصون في طريقهم الى الجامعة ، اخيرا تحرك الرجل الصامت ، لكز صالح بشر « اكتب ان طلاب الجامعة كلهم يطلبون التطوع ... ابا البشر ... اكتب عنوانا كبيرا ، وطلاب الجامعة من الجمهورية العربية وغير الجمهورية ، اكتب لعينيك ... عاش صاحبنا » .

ويصيح دريد في غرفة بشر « انفخ في الشبابة لحنا فوق مستوى البشر .. اليوم مناسبة خاصة ، وانا احب أن اسكر بلا نبيذ ولا بيره » .

ويجيب بشر في وعي سابق ، بلهجة انهزامية منفعلة « دريد، الثورة لم تنجح ، دعك من المناسبة ، فهي ستضيف لنا انهزاما جديدا » .

ويحاولون الذهاب الى حيث يموت الانسان العربي .. كالنعاج والكلاب .. ليموتوا هكذا يدينون بموتهم ، التاريخ ، ومتفرجي العالم، وجزاري السلام . لكنهم يفشلون في مشروعهم ، وتصاب الثورة بنكسة ، كما حدس بشر ، اضافت بها هزيمة وفشلا جديدين ، لبلادنا الممزقة .

. . . . .

عندما كان الترام ينحدر في قلب دمشق ، وبشر يودع من نوافذه الناس والاشياء ، بطريقة صامتة ، وكانه يرى هذه العالم لاول واخر مرة ، كان في طريقه لتتويج هزائمه بالانتحار العقلي ، كما فعل « ت. ي. لورانس » بانتسابه الى الكلية العسكرية .

حدث هذا بعد ان فشل نهائيا في ان يكون كما اراد لنفسه : ماتت امه بلا مبرر ، ولفتها حفرة جامدة ، واكتشف سادية سحاب ، بعد زواجها من مدير السكك الحديدية ، وارسل صالح الى « الفقة » الباستيل الجديد بعد عذاب وحشي من الطفاة ، واكتشف حب واحة وهي تموت ، وهو لا يستطيع تقديم دمه لانه مسلم وهي مسيحية ، تموت بعد ان تتفتت وتوصي بدفنها في التلة الشرقية في قرية بشر..

هذه هي الرواية ، المأساة ، في عبث ابطالها وتمزقهم ، في فشلهم وهزائمهم المتلاحقة ، في اندفاعاتهم المجنونة ، ولا مبالاتهم ورفضهم لما هو كائن ، مزيف لا حقيقي ، في سبيل ما هو اصيل وصميمي ، يظلون ابدا في توحدهم واغترابهم ، في عذابهم الابدي شبقا روحيا عقلانيا واعيا لقيام حضارة جديدة ، على رغم واشلاء قيم وحضارة تحتضر ...

وتظل « المهزومون » سبقا جريئا مركوزا في مطلع الدرب ، تتحدى المباقرة ...

تحيتي « لهاني الراهب » في انتاجه الاول ، وشكرا « للآداب » في تقديمها للفكر وتسليم الناشئة بداية الطريق المتعبة .

طرطوس — حيدر حيدر

★

— ٢ —
« المهزومون » ومشكلة التكنيك

بقلم جورج طرابيشي

★

قد ابدو لمن سيقرا هذا المقال قاسيا ، وانني لم آخذ بعين الاعتبار ان مؤلف هذه الرواية ، هاني الراهب ، شاب في الثانية والعشرين ، وانها اول رواية له ، وانها قد فازت من بين اربع عشرة رواية بجائزة « الآداب » الاولى . وبالفعل ، فانني لم آخذ هذه الملاحظات بعين الاعتبار ، لسبب بسيط هو انه ليس هناك كاتب ناشيء او كاتب صغير السن ، بل هناك كاتب . كاتب يقترح على القراء عملا ما . و لايحق لاي ناقد ان ياخذ بعين الاعتبار الا هذا العمل بالذات، بغض النظر عن شخصية مؤلفه(١) .

ما هي « المهزومون » ؟ انها تحاول ، كما هو واضح من العنوان، ان تكون قصة جيل . جيلنا الشاب ، المثقف الجامعي ، الذي يريد ان يعتبر المجتمع صفرا حتى يستطيع أن يعيش حياته بكل عمقها ، دون ان تحده التقاليد البالية التي هي ، في مجتمعنا ، من مخلفات القرون الوسطى .

هذا الصراع بين جيلنا الشاب والتقاليد ، حاول هاني الراهب ان يعبر عنه بقصة الحب التي ربطت الطالب الجامعي « بشر » بالطالبة « سحاب » وهي فتاة مطلقة تلوك سمعتها الالسنة . ان « بشر » يعلن تحديه للتقاليد عاليا عندما يعلن رغبته في الزواج من «سحاب» بغض النظر عن ماضيها وعن تحررها الجنسي وعن استعدادها للنوم مع اي رجل يرضيها ويعجبها . ذلك ان « بشر » يعتبر « سحاب » اخلاقية في تصرفها هذا لانها تقدم عليه بارادتها لا اكراها . وهو عندما سيتزوجها ، لن يحاول مطلقا ان يرغمها على ان تكون مخلصة له باسم الاخلاق ومبادىء الزواج ، بل عن طريق حبها له . فهي اذا احبته كان من الطبيعي الا تنام مع غيره . وما دامت هي لن تحبه بعد ، فهو لن يدينها ابدا على تحررها الجنسي ولن يكف عن حبها ، مهما قال الناس والطلاب .

هذه هي الفكرة الرئيسية التي تدور حولها « المهزومون » ولكننا نظلم هاني الراهب اذا قلنا انه لا يقدم غير هذه الفكرة بل ، على العكس ، ان في روايته اشياء كثيرة وقصصا عديدة . ولكن المهم ان نعلم ما مدى ارتباط هذه الاشياء بالفكرة الرئيسية ومساهمتها العضوية في بناء الرواية ؟

ثمة ملاحظتان عامتان قبل الاقدام على تحليل الرواية . فهي اولا رواية هادفة توجيهية تقوم على اساس فكرة معينة يريد ان يعالجها الكاتب ، اي هي من النوع الذي يسمى بالفرنسية Roman à thèse ، لذلك فهي تشكو من العلة الخطيرة التي تشكو منها كل رواية à thèse ، اقصد اللاهنية التجريدية . وهي ثانيا مكتوبة بضمير الانا ، ولكن كاتبها وقع في اخطر ما يمكن ان تقع فيه الرواية المكتوبة بضمير الانا ، اقصد عدم التمييز بين التجربة الشخصية وبين التجربة الفنية . لذلك نجد في « المهزومون » اشياء كثيرة قد تكون صادقة حياتيا ، ولكنها « غير صادقة » فنيا ، كما نجد اشياء كثيرة قد تكون هامة للغاية في حياة الكاتب، باعتباره بطل

(١) اعتقد ان الاخ هاني نفسه لا يريدني ان آخذ بتلك الاعتبارات.

الرواية ، ولكنها لا تسهم مساهمة عضوية في بناء الرواية ، لذلك نشعر بانها غير مبررة فنيا وفاقدة الدلالة بالنسبة لمجموع الرواية .

اما المثال على الذهنية ، فنستطيع ان نجده في شخصية سحاب ، التي هي البطلة الثانية في الرواية . انها شخصية شاحبة الى حد مريع . اننا لا نعلم شيئا عنها من حياتها هي وتصرفاتها هي . كل ما نعلمه عنها ياتينا من خلال اذهان الابطال الاخرين ، او من خلال المناقشات الفكرية الباردة ، او من خلال الالسنة التي تريد ان تنال من سمعتها . وبتعبير اخر ان شخصية سحاب لا تتكشف لنا من خلال الحدث ، بل من خلال الحوار ، والحوار الفكري الصرف . اننا نعرف افكارها مثلا من خلال المناقشة التي جرت بين طلاب الجامعة في قاعة الموسيقى حول الخجل في علاقات الجامعيين (ص ١٤٩ – ١٥٣) . او لنستمع اليها تشرح لبشر سبب تصرفاتها (ص ٢٩٠) :

– انني سكرانه دائما ... سكرانة لاني اشعر دائما ان كل ما جاء به البشر حتى الان ، ليس الا تفاهة مغرقة في الضحالة . لقد قضى المفكرون اجيال الزمن الغابر وهم يحاولون ان يقيدوا البشر بلعنات سموها اخلاقا . ولكن احدا منهم لم يحاول ان يفهم ان البشر دوافع ، وكتل عاطفية تقيدت جسدا ، ولا ترغب في ان تتقيد روحا ، لا تريد هذه السجون الحمقاء ان تكبلها ... ما الذي تفيده الاخلاق اذا كانت وظيفتها الحد دائما ؟! لقد وجد الانسان على الارض ، ووجدت معه نزعاته وطبائعه ... ولكن الله منذ بدء الخليقة يشترك مع الفلاسفة في ايجاد كل ممكن ليكبتوا به هذه النزعات وهذه الطبائع .. هاه .. عفوا .. انهم لا يأتون بحلول .. ونحن نريد ان نودع هذه العاطفة قلب الكون ، وننعتق من تقويمنا .. انظر الينا ايها الله ، اننا نموت جوعا .. انت محب ولست قاضيا . ان حياتي مضيعة بين اشراق الزمن المرهق والمسافات المتقعرة . وهذه الايام التي تمضي ، فيزداد تثاقلها بالالم والتعب واللايطاق ، اراها تجرجر اثقالها على حسابي .. اني اعيشها باعصابي ودمع عاطفتي ، وشجن افكاري ، والبقية من طاقتي ...

انا اعلم ان مثل هذه الخطبة الطويلة لا تكفي وحدها دليلا على ذهنية الرواية ، لان ليس ثمة مبدأ فني يحرم على الكاتب اللجوء الى مثل هذه الخطب (روايات دوستويفسكي وتولستوي اول شاهد على ذلك) . ولكن الشخصية الروائية تقع في الذهنية والتجريد عندما لا يكون لدى الكاتب من وسائل يقدمها بها الينا غير هذه الخطب .

وليت هذه الذهنية اقتصرت على الشخصيات ، ولكنها امتدت ايضا، مع الاسف ، الى المواقف . فبشر مثلا يصاب بالقيء عندما حضر حفلة من حفلات المولد . لقد حاولت عبثا ان افهم كيف يمكن للانسان ان يتقيأ لمجرد انه قد اراد ان يدين هذا النوع من الحفلات الذي هو من مخلفات القرون الوسطى ، فلم يجد سوى القيء يعبر به عن ثورته واستنكاره . (وبالمناسبة استطيع ان اؤكد ان حوادث القيء في القصص التي يكتبها ادباؤنا الشباب قد تضاعفت بشكل عجيب منذ ان عرفنا ان لسارتر رواية بعنوان « الغثيان » ومنذ ان تكلم كولن ولسون بشكل مفصل عن هذا الاحساس الذي يتملك الانسان عندما يشعر بزيف وجوده او وجود الاخرين) .

وذهنية الموقف هذه تتجلى مرة ثانية عندما يرفض بشر جسد ثريا على الرغم من انها عرضته عليه . وهو لم يلمسه على الرغم من انها قضت ساعات طويلة في غرفته ، بمفردها . فكيف يستطيع الكاتب ان يبرر مثل هذا الرفض وكل ازمة بشر ، كما يتضح من الرواية هي ازمة جنسية وان تقنعت احيانا بقناع الحب الرومانتيكي ؟

ولكن لا بد هنا ان اسجل لهاني الراهب انه ان كان لم يستطع ان يبرر استنكاف بشر عن امتلاك جسد ثريا ، فهو قد عرف فيما بعد كيف يبرز امتلاكه له . فالمرة الاولى التي ينام فيها بشر مع ثريا ، كانت عندما عاد من قريته ، مسقط راسه ، حيث ماتت امه . فكان هذا الموت جاء ليذكر بان الحياة تمضي ، وان الفرصة التي تضيع لا تعود ابدا .

ولكن الذهنية تعود من جديد للظهور في علاقته مع ثريا عندما تاتي لتخبره انها حامل منه . وكاني بهاني الراهب قد اوقع هنا نفسه في مازق لم يعرف كيف يخرج منه . فمن المعلوم ان الرجل ، عندما تكون علاقته بالمراة جنسية محضة ، يحذر كل الحذر ان تنجب هذه المراة منه ابنا . واذا كانت هذه هي الحال بالنسبة لرجل عادي ، فكيف الامر بالنسبة لطالب جامعي لم يتجاوز العشرين ، ويحب امراة اخرى ؟

ولكن لنفرض ان هذا الحبل قد تم صدفة وبغير ارادة من بشر ، فكيف يكون الشعور الذي تملك بشر عندما اخبرته ثريا بحملها «شعورا غريبا بالفرح ، وشعورا فظا بالثورة » (ص ٢٧٢) ؟ في حين ان الشعور الوحيد الذي كان يجب ان يتملكه هو شعور بالخوف ، الخوف من نتائج هذه العلاقة الجنسية التي لا تقوم على الحب ، والتي قد توقعه ، بسبب الطفل ، في مازق حرج ليس اقل ما فيه ان تعلم سحاب بخيانته والا يستطيع الزواج منها .

ان كل شيء هنا يؤكد ان هاني الراهب عندما « اختلق » حادثة الحبل هذه ، لم يعرف كيف يسير فيها حتى النهاية . فالحل الذي اوجده لها حل ذهني محض . ان بشر لا ينظر الى هذا الحبل الا من زاوية واحدة هي ان ابنه من ثريا لن ينسب اليه بل الى زوجها . وهذا ما يحنقه في المشكلة (؟) ولهذا يطالبها بالاجهاض . ولو كان البطل اكثر صدقا ، ولو قال لنا انه اتخذ من هذا السبب (ان يكون ابنه باسم رجل غيره) حجة لكي يقنع ثريا بالاجهاض ، لاقتنعنا معه . فلو كان حريصا حقا على ابنه ، لطلب من ثريا ان تطلق زوجها لتصبح زوجته . ولكنه لم يفعل ذلك ، لانه في الحقيقة يريد ان يتخلص من الورطة التي اوقعته ثريا فيها . ولكن لم المثالية في مثل هذه الحال ، وادعاء الحرص على انه لا يريد لابنه ان يكون باسم غيره : « نظرت الى بطنها بريبة كنت احس بضهورتها . احقا تستقر هنا نواة سوف تصنع في المستقبل ولدا ؟.. هذا يعني انني صرت ابا بالضرورة ، وغدا عندما يولد صبي صغير ، كيف يمكن ان اتوارى من حياته ، واتركه ينادي هذا الاصلع البشع (زوج ثريا) « بابا » ؟ ان هذا ليس معقولا !.. » . (ص ٢٧٣) .

ان هذه المثالية ، غير الصادقة ، ليست الا نتيجة حتمية لذهنية الحادثة وعدم واقعيتها . (وبالمناسبة ، اننا نلاحظ ان بطل الرواية انسان مثالي الى حد كبير . ولا اقصد بالمثالية هنا الطوبائية ، بل الرغبة اللاشعورية في الظهور بمظهر الانسان الاخلاقي ، الذي لاتعيبه شائبة . ولعل هذا راجع الى ان الرواية ذاتية ، بطلها هو الكاتب نفسه . وهذا يفسر لماذا زيف بشر المشكلة ، وثار على ثريا واتهمها بانها تريد ان تنسب ابنه الى غيره ، مع انه كان من المفروض ، فيما

– التتمة على الصفحة ٧٨ –

كتابان خطيران

عارنا في الجزائر — لجان بول سارتر

الجلادون — لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الاداب

المهزومـــون

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٩ ـ

لو كان صادقا ، ان يتهم نفسه ، ويعترف ، في داخله على الاقل ، بانه افتعل هذه الثورة ليتخلص من الورطة) .

قلت ان حادثة الحبل هذه كانت ورطة ، من وجهة النظر الفنية. وهذا ما نتاكد منه مرة اخرى ، واخيرة ، عندما لم يستطع هاني الراهب ان يجد للحادثة حلا طبيعيا ، فلم يجد خيرا من ان يصمت ، وينهي علاقة بشر بثريا هنا ، ولا يذكرها مرة اخرى حتى نهاية الرواية . مع ان بشر ، لو كان صادق الاحساس بابوته، لما استطاع ان يتناسى لحظة واحدة ان في احشاء امراة ما ابنا منه ، ولكان من الواجب ان تظل هذه المشكلة مطروحة حتى اخر الرواية ، وان يوجد لها حل (باعتبار ان ثريا رفضت ان تجهض) .

وليست علاقة بشر بسحاب اقل ذهنية من علاقته بثريا . ولكن الفرق الوحيد هو انه لم تنشأ اية علاقة حقيقية ، علاقة رجل بامراة، بينهما . ان علاقته بسحاب ليست الا سلسلة طويلة من المناقشات الاخلاقية التي تتم في ذهن بشر ، والتي يحاول بها ان يبرر افعال سحاب وحياتها الخاصة . هذه المناقشات هي التي جعلت الجو بينهما باردا بشكل عجيب ، باردا الى حد لا يمكن ان نتصور معه انه جو حب . لذلك يظل القرىء ، طوال صفحات الرواية ، يشعر بلاحقيقية العلاقة وبانها مصطنعة اصطناعا لتكون جسرا يستطيع الكاتب ان يعبر منه الى انتقاد المجتمع وتهشيم التقاليد .

ومع ذلك لنفرض ، كما يريد الكاتب ، ان العلاقة حقيقية ، وان سحاب اخلاقية في تصرفها . ولكن ها هي سحاب تكشف نفسها على حقيقتها في اخر الرواية ، تكشف نفسها كماهرة تعرف كيف تستغل جسدها لتصل الى ما تريد . الا تقول هي نفسها لبشر :

« ـ ساتزوج قريبي .. ابن خالتي طبعا ، وهو مافون احمق ، يمكن ارضاؤه ببضع ساعات على السرير . وبعد ذلك اتصرف كما اشاء » . (ص ٢٨٨) .

الم تكن كل حجة بشر ، عندما اعتبر سحاب اخلاقية ، انهاامراة حقيقية تحترم جسدها ولا تسلمه الا لمن يعجبها ؟ ولكن ها هي تصرح له انها ستتزوج من ابن خالتها الاحمق ، وانها سترضيه « ببضع ساعات على السرير » ، اي انها ، بتعبير اخر ، قد قبلت بان تكون عاهرة ، وان كانت ستمارس عهرها مع زوج « شرعي » . بل هي لا تكتفي بذلك ، بل تعرض على بشر ان تصبح عشيقة له بعد زواجها:

« ـ اذا اردت ان تصبح عشيقي ، فاتصل بي بعد شهر العسل . سأستسلم لك كما تريد ، فانت الوحيد الذي كان معي شريفا ، رجلا، وانسانا ، في الوقت نفسه ... » .

اعتقد ان اي رجل لا يمكن ان يشعر امام هذا الكلام الا بشيء وحيد هو الاشمئزاز العميق . ولا اتكلم هنا اخلاقيا بل جنسيا . فكيف الحال بالنسبة لبشر الذي يحبها ، والذي ظل يدافع عنها ضد كل السنة الطلاب الوقحة ، لانه كان يؤمن بانها امراة تحترم جسدها وانوثتها ؟ ومع ذلك لم تبدر عن بشر بادرة غضب واحدة ، بل انه يدعوها الى غرفته (كانت الدعوة الاولى والاخيرة) ويشربان وياكلان ثم يرقصان الدبكة (نعم الدبكة !) ... وتنتهي القصة بان يرفض النوم معها عندما تعرض عليه ذلك !

وبقدر ما نشعر بالافتعال في هذه المواقف وبان الكاتب لا يملك اية تجربة عنها ، بقدر ما نشعر ، على العكس ، بصدق بعض المواقف الاخرى ، التي اعتقد ان الكاتب قد عاشها حقا ، كموت امه . ولكن، وكما قلت في بداية مقالي ، ان هاني الراهب يقع هنا في اخطر ما يمكن ان تقع به الرواية المكتوبة بضمير الانا ، فيذكر لنا حوادث قد تكون حقيقية ، صادقة ، قد وقعت فعلا ، لكنها منفصلة عن جو الرواية وفكرتها لا تساهم في بنائها بناء عضويا ، بل هي ، على العكس ، تقطع تسلسلها وتفضح ، لصدقها الحار ، افتعال المواقف الاخرى التي لا يبدو ان الكاتب قد عاشها حقا . فمثلا ، ما هي « الخدمة » الفنية التي قدمتها الصفحات الطويلة ، الجيدة ، التي كرسها الكاتب لمرض ام بشر وموتها ؟ انها ـ مع الاسف ـ مقطوعة الصلة بمجموع الرواية .

واخيرا ، بالاضافة الى هذه المآخذ ، فان « المهزومون » تشكو من عيب خطير وهو ان احداثها لا تكاد تقنعنا بانها قد جرت حقا . وكاني بهاني الراهب يجهل احد المباديء الاساسية التي يجب ان تتوفر في كل رواية ، تريد ان تكون واقعية ، واعني به مبدأ مشاكلية الواقع. وسأحاول هنا ان آتي ببعض الامثلة .

لناخذ شخصية ملك ، زوجته اخيه هلال . ولنلاحظ اولا ان بشر قروي الاصل ، وكذلك اخوه هلال . فما مدى تحرر العلاقة التي يمكن ان تقوم ، في مثل هذه الحال ، بين الاخ وزوجة الاخ ؟ اعتقد انها لا تستطيع ان تكون صميمية ، لا يشوبها اي اثر من حرج ، وخاصة عندما تدور الاحاديث عن القضايا الجنسية ، لقد بدت لي ملك ، وكانها ليست زوجة اخ ، بل صديقا ، ـ ولا اقول صديقة ـ حميما لبشر . فهي لا تتورع عن الخوض معه في تفاصيل جنسية محرجة . كما انها هي التي تطلعه على قصة ثريا وحياتها البائسة مع زوجها الحلاق الذي يضربها ويعذبها بل هي تكاد تشجعه على ان ينشيء علاقة معها ولا تتورع عن سؤاله :

« ـ بدينك .. كم مرة قبلتها ؟ » (ص ٤٧) .

صحيح ان ملك فتاة مدينية على ما يبدو . ولكن لا ننس انها متزوجة ، وانها تتحدث عن امراة متزوجة . فهل هناك عجب اذا قلت اني شعرت ان زوجة الاخ هذه شخصية مفتعلة لا وجود لها في عالم الحقيقة ، ولا في عالم دمشق ومجتمعنا ، مجتمعنا الذي يذبح فيه الاخ اخته اذا رآها مع شاب غريب؟

ولناخذ ايضا قصة الشيخ الذي تزوج خديجة ابنة الجيران . ان ملك هي التي تروي القصة :

« ـ لقد عادت (خديجة) لبيت اهلها ، لان الشيخ لم يستطع ان يتزوجها ! لم يستطع ان يتزوجها بالمرة ، ولقد نصحه اهله ورفقاؤه

صدر حديثا :

رسائل مؤرقة

احدث ديوان

للشاعر العربي الكبير

سليمان العيسى

منشورات دار الاداب

ان يشرب بعض النبيذ او العرق ، فرفض وصمم أن يحاول من جديد . وكلما دخلا الغرفة انطفأت طبيعته . وقد حدث ان استمر في مداعبتها لعله .. ولكنه خمد في الوقت الذي بلغت به اللحظة الحرجة عند خديجة ذروة ، فهرب من الغرفة وتبعته وهي تركض ركضا اعمى مجنونا ، وكأنها فقدت كل سيطرة ، فاصطدمت بخاله ، وانهالت عليه قبلا وضما وكان ان اثير الخال .. » (ص ١٧) .

ولنلاحظ قبل كل شيء ان ملك ، زوجة الاخ ، هي التي تروي هذه القصة على رغم ما فيها من الفاظ فاضحة . ولنلاحظ ثانيا لا واقعية القصة (اصطدام الفتاة بالخال وانهيالها عليه ..) ولكن ليس هذا كل شيء ، فالقصة تصبح مضحكة حقا عندما تأتي الجارة وتطلب من بشر وهلال وملك ان يأتوا الى بيتها ليشهدوا دخول الشيخ على الفتاة ، وكأننا لا نزال نعيش في العصور الوسطى . بالطبع، انا اعرف ان بعض الناس في بلادنا لا يتزوجون الا بحضور الاقارب والاصدقاء ، حتى يثبتوا لهم ان زوجتهم عذراء . ولكن ما استغربه هو ان يقبل بشر وملك وهلال بالذهاب . وهم ما هم عليه من ثقافة وفهم لمعنى الحياة الحديثة .

ولناخذ ايضا بداية علاقة بشر بثريا . لقد رأت العلاقة بينهما عندما راح يراقبها من النافذة وهي تشتغل في المطبخ . ففضبت واغلقت النافذة . ولكنه طلب اليها ان تفتحها ، قائلا :

ـ لماذا لا نتكلم ، لانتحدث ؟.. انت تعرفين انني لن اوذيك ، هذه ليست اشياء محرمة .. ليس حراما الا الزنا، والقتل ، وظلم الزوجات .. لاتطفئي النور ، انا اعلم انك تصغي لي ، وحتى لو ذهبت سابقى اتكلم الى ان تعودي .. افتحي هذه النافذة ودعينا نتحدث ، فانا لااكل بشرا .. كلنا يريد من دنياه شخصا ، اي شخص يصغي له بحنان واستغراق ، فلماذا تهربين ؟ انا وحدي وانت وحدك ، لقد صدمت مثلك بطريقة اخرى .. فانا احببت فتاة لاتحبني » ص ٢٩ .

هل من المعقول ان يوجه انسان مثل هذا الكلام الى امرأة ، هي زوجة حلاق ، امرأة تقول :

بل واكثر من ذلك كيف استطاع بشر ان يصفها هذا الوصف الدقيق، وهو في نافذة وهي في نافذة اخرى : « حركاتها ، اهتزازها ، تلفتها ، غنج جيدها وظلال اجفانها ، تكشيرتها الفاتنة ، والتلألؤ الباهر في عينيها .. » ص ٢٨ .

ولنستمع الى بشر في الصفحة (١٦٤) يحدث سحاب عن حبه لها ورغبته في الزواج منها ونقاشهما حول الحب والتجربة الجنسية . كل ذلك امام طالبة غريبة كانت تجلس معهما . فهل من المعقول ان يجري مثل هذا الحديث ، وفي جامعة كجامعة دمشق ، وهاني الراهب هو او من يعترف بجوها الاجتماعي المتزمت ؟

ولنفتح الصفحة الاخيرة في الرواية ، عندما قرر بشر ، بعد فشل حبه لسحاب ، ان يتطوع في الكلية العسكرية . لقد ذهب الى البريد ليضع المغلف الذي يحتوي على اوراق تطوعه ولكن موظفة البريد تقول له بدهشة :

« ـ ولكن الكلية العسكرية لم تعلن بعد عن بدء دورة هذا العام .» (ص ٣٠٢) .

ونحن نتساءل كيف عرفت الموظفة ان بشر يريد ان يتطوع ، وكيف عرفت ان الكلية لم تعلن بدء الدورة ؟

ثم لنعد الى الصفحة الاولى من الكتاب حيث يصف لنا الكاتب بطله بشر للمرة الاولى . انه يقول انه خرج الى الشرفة وراح ينظر الى مآذن دمشق السبع والاربعين ، ويكرس الكاتب ستة اسطر لوصف هذه المآذن . ونحن لااعتراض لنا على هذا الوصف من حيث هو وصف . ولكن ما نعارضه هو ان يستبق الكاتب الحدث ، فيجعل بطله يتحدث عن مآذن دمشق ثم يقول ان جاره دعاه الى الصلاة في الجامع القريب . وهنا يتكشف لنا الموقف المسبق للكاتب . انه يعلم ان بطله سيتلقى دعوة للصلاة ، لذلك راح يصف المآذن . لكنه يكون بذلك قد سقط في خطأ هام . فالوصف في الرواية يجب ان يكون نتيجة للحدث لا العكس . اعني انه كان من المفروض الا يتجه انتباه بشر الى المآذن الا بعد ان يتلقى دعوة جاره . اما ان يسبق وصف المآذن الدعوة الى الصلاة فهذا لا يعني الا شيئا واحدا هو ان الكاتب يتدخل في سير الرواية ويفقع نفسه ، هو الذي يعلم باعتباره الكاتب ما سيجري ، مكان البطل بشر ، الذي من المفروض فيه الا يعلم ما سيجري .

وبعد ، اذكر انني في مقالي عن « اتجاهات النقد المعاصر للقصة العربية » المنشور في عدد سابق من « الاداب » قد ذكرت ان معظم النقد عندنا لا يزال نقدا تكنيكيا يتجه الى الكشف عن الاخطاء الفنية التي يقع فيها كتاب القصة في بلادنا . وقلت ايضا ان النقد ارغم على اتخاذ هذا الموقف نظرا لان فن القصة عندنا لم ينضج بعد الى الحد الكافي .

ولقد كان مقالي هذا عن « المهزومون » تكنيكيا صرفا . ولقد كنت مرغما على كتابته بهذا الشكل ، لانه كان علي قبل ان احاول تحليل هذه الرواية والكشف عما اراد كاتبها ان يقوله فيها ، ان تساءل : هل هي رواية ؟

واخيرا ، انني اعترف انني في نقدي هذا مقصرا ، فقد اكتفيت بتبيان ما فيها من نقاط سلبية ، ولم اتعرض لما فيها من نقاط ايجابية ، مع ان هذا واجب علي كناقد يريد ان يستشف قيمة عمل فني ، وان يذكر ما له وما عليه ، ولكن ...

ولكن يبدو ان الناقد يفضل دوما ، بحكم طبيعته ، الشق الثاني من المسألة ، اي يفضل ان يذكر الاخطاء وخاصة اذا وجد نفسه امام كاتب لايزال في بداية الطريق . لانني اعتقد ان مهمة النقد ، في مثل هذا الحال ، ليست تحديد الطريق ، بل التنبيه الى المزالق الخطرة التي قد تبعد الكاتب عن الطريق التي كان يحلم بالسير عليها .

دمشق — جورج طرابيشي

صدر حديثا

أبيات ريفية

بقلم عبد الباسط الصوفي

قصائد رائعة للفقيد الذي

كان نسيج وحده في عالم الشعر

الثمن ٢٠٠ ق.ل ـ ٣٧٥ ق.س

دار الآداب